الصراع الأيديولوجي الدولي ودوره في تشكيل أسس ومفاهيم علم الأدب المقارن

د. محمد بكادي
مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تمنغست
المركز الجامعي لتامنغست

1ـ تمهـيد

إن علم الأدب المقارن هو علم حديث [1]ـ نسبيا ـ بالنظر إلى نشأته التي تعود حسب أغلب الدارسين إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتحديدا ما بين سنة 1928 وسنة 1930 [2] وهو علم له خصوصية كبيرة نظرا لطبيعة دراسته للظاهرة الأدبية التي تعتبر دراسة متشابكة ومعقدة ومنظومية، ولا تقف عند مجال معين مثل باقي العلوم الأخرى المتخصصة في دراسة الأدب والظاهرة الأدبية، كعلم التاريخ الأدبي ـ مثلا ـ الذي يقتصر مجاله على التتبع التاريخي لمختلف العصور الأدبية أو المذاهب الأدبية، ولا كعلم النقد الأدبي الذي يقتصر مجاله على قراءة الأثر الأدبي ومقاربته قصد تبيان جوانبه الإيجابية والسلبية ومواطن الجودة والنقص فيه، ولا كعلم نظرية الأدب الذي يختص في البحث عن ماهية الأدب وطبيعته ووظيفته.

فالدراسة في مجال الأدب المقارن هي دراسة متشعبة ـ كما سبق وأن اشرنا ـ فهي تتطرق إلى دراسة الآثار الأدبية من نواح متعددة؛ تاريخية وإبداعية وفكرية وإيديولوجية وغيرها، مستخدمة النقد الأدبي وتاريخ الأدب والعديد من الفروع المعرفية الأدبية واللغوية الأخرى، بالإضافة إلى علم النفس، وعلم الاجتماع والفلسفة والعلوم السياسية، والعلوم الاقتصادية والعلوم الدينية. وذلك قصد الوصول إلى معرفة عمق المجتمع والثقافة التي ينتج منها هذا الأدب أو ذاك، وللوقوف ـ كذلك ـ على ما هو أصيل وما هو وارد في مختلف الآداب القومية[3].

إن هذا العلم بما هو عليه من خصوصية من حيث الوظيفة، ومن حيث الآليات والطرائق المعتمدة في دراساته، هو كذلك ذو خصوصية من حيث

الظروف التي نشأ فيها، ومن حيث الأسس والمفاهيم التي بني عليها وساعدت في تشكيل مدارسه واتجاهاته والتي لعبت فيها عوامل جمة أدوارا محورية أساسية .

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت في بناء أسس وركائز اتجاهات ومدارس علم الأدب المقارن هو عامل: (الصراع الأيديولوجي الدولي)، وهو عامل لم يسلط عليه الضوء كثيرا، ولم يتم تناوله في دراسات معمقة في هذا المجال بالرغم من كونه أحد المساهمين الرئيسيين في تشكيل ركائز وأسس ومفاهيم هذا العلم، والموجه الرئيس لمختلف اتجاهاته ومدارسه .

ولذلك فالتساؤل الذي يطرح نفسه في هذه المسألة هو الآتي : ما هو الدور الذي لعبه الصراع الأيديولوجي الدولي في تشكيل مبادئ ومفاهيم وأسس علم الأدب المقارن ؟

سأحاول الإجابة عنه من خلال الوقوف على المبادئ والأسس والمفاهيم التي قامت عليها أهم وأشهر المدارس الرئيسة لعلم الأدب المقارن؛ كالمدرسة الفرنسية، والمدرسة الأمريكية، والمدرسة الروسية أو السلافية، وذلك قصد تبيين وإبراز الدور الخطير الذي لعبه الصراع الإيديولوجي الدولي بين بعض دول وقوميات العالم في تشكيل الأسس التي يرتكز عليها هذا العلم اليوم وذلك من خلال معالجة المحاور الآتية :

أولا : مفهوم الصراع الأيديولوجي الدولي

ثانيا : تعريف الأدب المقارن وظروف نشأته

ثالثا : مدارسه واتجاهاته، ودور الصراع الأيديولوجي في تشكيلها

أولا ـ مفهوم الصراع الأيديولوجي الدولي

قبل التطرق لتعريف مفهوم الصراع الأيديولوجي الدولي، كمصطلح له دلالاته المختلفة السياسية والاجتماعية والنفسية والقانونية، يجدر بنا ـ أولا ـ الوقوف على تعريف الكلمات المفتاحية المكونة لهذا المصطلح، وهي : الصراع والأيديولوجيا.

فالصراع لغة كما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة هو: (مفرد)، جمعه : (صراعات) ويعني : خصومة، ومنافسة، ونزاع، ومشادة [4]. أما في الاصطلاح، فلكون الصراع ظاهرة لا ترتبط بمنظومة مصطلحية واحدة ،و إنما هو مصطلح له في كل حقل دلالاته فسنحاول تعريفه في بعض المجالات التي

ينتمي إليها كمصطلح يدخل ضمن منظومتها المصطلحية. فمفهوم الصراع في المجال الاجتماعي هو: نضال حول قيم، أو مطالب،أو أوضاع معينة، أو قوة، أو حول موارد محدودة أو نادرة، ويكون الهدف هنا متمثلا ليس فقط في كسب القيم المرغوبة، بل أيضا في تحييد، أو إلحاق الضرر، أو إزالة المنافسين أو التخلص منهم، أما في المجال النفسي، فهو : موقف يكون لدى الفرد فيه دافع للتورط أو الدخول في نشاطين أو أكثر، لهما طبيعة متضادة تماما، وهنا يؤكد **موراى** على أهمية مفهوم الصراع في فهم الموضوعات المتعلقة بقدرة الفرد على التكيف الإنساني وعمليات الاختلال العقلي أيضا[5]. أما مفهومه في المجال السياسي، فهو موقف تنافسي خاص، يكون طرفاه أو أطرافه، على دراية بعدم التوافق في المواقف المستقبلية المحتملة، والتي يكون كل منهما أو منهم مضطرا فيها إلى تبنى أو اتخاذ موقف لا يتوافق مع المصالح المحتملة للطرف الثاني أو الأطراف الأخرى[6].

وللأهمية التي يكتسيها الصراع في هذا المجال أي : المجال السياسي فقد أصبح علما قائما بذاته ويسمى (علم الصراع، Conflictology)، وهو العلم المنهجي الذي بدأت أساساته تظهر بعد خمسينات القرن العشرين في أوروبا الغربية. والذي يعنى بالصراعات من حيث وصفها وتحليلها والتنبؤ بمستقبلها ومعرفة مداخلها ومراحلها وأطرافها وجميع المؤثرات فيها.

أما كلمة أيديولوجيا Ideologie، فهي في الأصل كلمة يونانية تتكون من مقطعين، المقطع الأول، وهو : Idea ويعنى الفكرة، والمقطع الثاني وهو : Logos ويعني العلم، فتكون الترجمة الحرفية (علم الأفكار). ويعتقد أن أول من جاء بكلمة الأيديولوجيا هو الفيلسوف الفرنسي **ديتوت دى تراسي** المتوفى سنة : 1836.[7] ويرى الدكتور عبد الله العروي" أن كلمة الأيديولوجيا دخيلة على جميع اللغات الحية، تعني لغويا في أصلها الفرنسي علم الأفكار لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمنوها معنى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية، فأصبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية. إن العبارات التي تقابلها ـ منظومة فكرية، عقيدة، ذهنية ،...الخ، تشير فقط إلى معنى واحد من بين معانيها ." [8]

أما اصطلاحا فمن الصعب وضع تعريف للأيديولوجيا لأن " مفهوم الأيديولوجيا ليس مفهوما عاديا يعبر عن واقع ملموس فيوصف وصفا شافيا، وليس مفهوما متولدا عن بديهيات فيحد حدا مجردا. وإنما هو مفهوم

اجتماعي تاريخي، وبالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية عديدة."[9] ولذلك يبقى تعريفها الاصطلاحي غير محدد ويتوقف على العديد من التصورات المختلفة، ولعل من ضمن التعريفات الاصطلاحية العديدة للأيديولوجيا، التعريف القائل:" إن للإيديولوجية معنيين اصطلاحيين أحدهما أعم من الآخر : أولهما مطلق (النظام الفكري والعقائدي) الشامل للأفكار النظـرية أي: الأفكار المبينة للواقعيات الخارجية التي لا ترتبط ـ بشكل مباشر ـ بسلوك الإنسان، والأفكار العملية، أي الأفكار المتعلقة بسلوك الإنسان والمحتوية على الوجوب و المنع . وثانيهما يختص بالنظام الفكري المحدد لشكل سلوك الإنسان "[10]

أما الصراع الدولي ؛ فسواء كان أيديولوجيا ،أو سياسيا، أو اقتصاديا، أو دينيا أو غير ذلك فهو ظاهرة دولية طبيعية تعكس حالة من تعارض المصالح أو اختلاف القيم بين مجموعة بشرية وأخرى. وهو يعبر عن الأحوال التي بمقتضاها توجد جماعة بشرية ما تتسم بتمايز عرقي أو ثقافي أو ديني أو حتى تمايز اقتصادي أو سياسي - تتعارض مصالحها أو قيمها مع جماعة أخرى أو أكثر بسبب أتباعها ما لا يتلاءم مع سلوكها أو أهدافها[11]. وهو يعتبر مكونا أساسا من مكونات العلاقات الدولية، بل هناك من يعتبره جوهر هذه العلاقات، كأستاذ العلاقات الدولية **هانز موجانثو،** مؤسس النظرية الواقعية في العلاقات الدولية، الذي يرى أن " جوهر العلاقات الدولية هو السياسية الدولية. وان موضوع السياسة الدولية هو الصراع بين الدول " [12]

و الصراع الدولي أيا كانت طبيعته ـ كما أشرنا ـ ستكون له انعكاساته على الإبداع الإنساني بغض النظر عن كونها ايجابية أو سلبية، فهو يلعب أدوارا مهمة في إنتاج أو تكوين أو إنشاء الكثير منها. والتي نعتبر أن (علم الأدب المقارن)، هو من ضمن العلوم التي لعب الصراع الدولي ـ ذو الطبيعة القومية الإيديولوجية ـ دورا مهما في إنتاجها وفي تشكيل ركائزها الأساسية.

ثانيا : تعريف الأدب المقارن وظروف نشأته

للأدب المقارن تعاريف كثيرة، ومنها تعريف المقارني المصري **غنيمي هلال** الذي يعرفه على أنه :" مدلول تاريخي يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر أيا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر:

سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكى في الأدب أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب: ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر في أدب الرحالة من الكتاب "[13]

أما نشأة هذا العلم ـ باختصار ـ فتعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ويرى العديد من الدارسين انه بالرغم من المحاولات المقارنية العديدة بين الآداب في السابق إلا أن ملامح هذا العلم بمدلولاته الحالية (الحديثة)، لم تظهر إلا في سنة 1827 في فرنسا، وذلك حين بدأ المقارني الفرنسي "**آبيل فيلمان**" (**Abel Villemain**) -الذي كان أول من استخدم مصطلح " الأدب المقارن " وإليه يعود وضع الأسس الأولى لهذا الفرع المعرفي الأدبي- يقوم بإلقاء محاضرات في جامعة السربون حول علاقات الأدب الفرنسي بالآداب الأوروبية متناولا فيها التأثيرات المتبادلة بين الأدب الفرنسي والأدب الإنجليزي، وتأثير الأدب الفرنسي في إيطاليا في القرن الثامن عشر، وكان هدفه من وراء ذلك تقديم صورة عن ما تلقته الروح الفرنسية من الآداب الأجنبية، وما أعطته لها من أجل كتابة تاريخ أدب شامل لفرنسا.[14]

و هناك من المؤرخين من يرجع بوادر نشأة الأدب المقارن إلى القرن التاسع الميلادي وهنالك آخرون يرجعونه إلى تواريخ سابقة، وغيرهم إلى تواريخ لاحقة، ولكن المنطق يقتضي منا أن لا نقف كثيرا عند هذه الاختلافات، "و الواقع أننا لو أخذنا نبحث عن بداءات كل علم من خلال التلميحات الغامضة القديمة له لوجدنا أن جميع العلوم قديمة جدا، لأن أصولها المبدئية موجودة في التجربة الإنسانية والحاجة الإنسانية إلى العلم، ولكن ما نحن بصدده الآن هو تتبع النشأة الأولى للأدب المقارن بوصفه علما حديثا "[15]

و يرجع الكثيرون سبب نشأة وظهور الأدب المقارن في القارة الأوروبية، وفي القرن التاسع عشر بالتحديد إلى الدراسات المتعددة في مجال المقارنة بين الآداب الأوروبية ودراسة العلاقات المتبادلة فيما بينها التي ظهرت في القرن الثامن عشر والتي كانت بمثابة إرهاصات لظهوره، والتي يعود سببها هي كذلك إلى عدة عوامل، نذكر منها على سبيل المثال :

1- ظهور مناداة إلى رؤية عالمية في مجال الثقافة والأدب عند بعض المفكرين الأوروبيين أمثال **فولتير وروسو وديدرو وغوتة**، وظهور اعتقاد بأن الآداب الأوروبية هي حصيلة تفاعلات مشتركة عميقة، وأن الإبداع الأدبي هو تجربة مشتركة غير مقصورة على أدب دون آخر .
2- تطور الاتجاه الرومانسي في الأدب وطرحه لتصور يقضي بكون الأدب هو اتجاه إنساني شامل يعنى بالتجربة الإنسانية أينما كانت، ويتجاوز حدود الأمم واللغات .
3- اتساع الأفق الأدبي عند الكثير من الباحثين نتيجة لازدياد الصلات الثقافية بين الشعوب الأوروبية واطلاعهم ومعرفة بعضهم بأدب البعض الآخر، إما عن طريق الترجمات أو عن طريق المعرفة المباشرة للغات الأجنبية.
4- نشأة فروع معرفية جديدة تعتمد على المقارنة مثل : علم الميثولوجية المقارن، وعلم التشريع المقارن، وعلم اللغة المقارن .
5- المطالبة الملحة للعديد من الباحثين الأدبيين، وعلى رأسهم الفرنسي (**ادغار كينيه** Edgar Quienet) بضرورة إيجاد علم أدبي مقارن.[16]

أما الأسباب التي أدت إلى ظهور الأدب المقارن في فرنسا قبل غيرها من الدول الأوروبية الأخرى فيرجع ـ حسب أغلب الدارسين ـ لعدة عوامل كانت مواتية في تلك الفترة في فرنسا ؛ منها الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والتي من أهمها:

أولا : أن المناخ الثقافي الفرنسي كان مستعدا منذ العصر الكلاسيكي لممارسة البحث الأدبي المعمق في تلك الفترة، لاسيما بعد أن تعاقب على فرنسا حكام اهتموا بالعلم والثقافة وعملوا على جعل فرنسا مركز إشعاع ثقافي في أوروبا.

ثانيا : تنبه الفرنسيين قبل غيرهم من الأوروبيين إلى قيمة التراث المشترك بينهم وبين غيرهم في المناطق الأوروبية ألأخرى، مما كان سببا في نشأة أساس فكرة الأدب المقارن.

ثالثا : رغبة الفرنسيين الشديدة في استرجاع مكانة فرنسا الثقافية الماضية، من خلال بسط السيطرة الثقافية على المستعمرات الفرنسية في البلدان الإفريقية.[17]

وما يمكننا الإشارة إليه هو أن نشوء هذا العلم في القارة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر الذي يعتبر تاريخيا عصر الصراعات والنزاعات بشتى أنواعها وأشكالها بين دول العالم وبالخصوص الدول الأوروبية[18]، جعل هذا العلم لا ينشأ نشأة علمية أكاديمية صرفة، وإنما نشأ وهو يحمل في جيناته بعضا من اثر تلك الصراعات، وخصوصا منها الصراعات القومية والإيديولوجية .

والحقيقة أن هذه الصراعات كان لها الأثر البارز في بناء الأسس والمبادئ والركائز التي ارتكز عليها علم الأدب المقارن، ولها، كذلك، اليد الطولى في تشكيل معظم الأسس والمبادئ التي قامت عليها مدارسه، والتي يمكننا رصدها ورصد دورها بشكل جلي وواضح عندما نستعرضها باتجاهاتها وأسسها ومبادئها وأرائها.

1 : المدرسة الفرنسية واثر الصراع في تشكيل اتجاهاتها

تعتبر المدرسة الفرنسية التقليدية هي أول اتجاه ظهر في الأدب المقارن، وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر واستمرت سيطرتها كاتجاه وحيد في الأدب المقارن إلى غاية أواسط القرن العشرين، أي قرابة القرن من الزمان تقريبا[19] حيث ظهرت اتجاهات أخرى نازعتها هذا التفرد .

وللعلم فقد قامت هذه المدرسة على المنهج التاريخي، ولذلك تسمى بالمدرسة التاريخية،و يعرف **فرانسوا غويار** أحد أهم أعلامها الأدب المقارن على أنه : " تاريخ العلاقات الأدبية الدولية " [20] أو هو:" العلم الذي يؤرخ للعلاقات الخارجية بين الآداب"[21]. وتقوم دراستها على استقصاء ظواهر عملية التأثير والتأثر بين الآداب القومية المختلفة ورصد الظروف الخارجية التي تحيط بكل من الأديب أو بالعمل الأدبي سواء ؛ التاريخية أو السياسة أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية أو الروحية والتي تسهم في حدوث ذلك التأثير .

ولقد وضعت هذه المدرسة شروطا صارمة للدراسة المقارنة، فلكي تدخل أي دراسة من الدراسات تحت مجال الأدب المقارن لا بد من توافر الشروط الآتية :

- **أولا : أن تكون الدراسة بين أدبين قوميين أو أكثر، ولا تكون إلا في مجال الأدب**، أي أن الدراسة التي تقبل كدراسة تدخل تحت مجال الأدب المقارن،

هي تلك التي تقارن بين الأعمال الأدبية فقط، فتكون بين عملين (أدبيين) أو أكثر، بشرط توافر الاختلاف في القومية بين هذه الآداب، ومعيار القومية عند هذه المدرسة هو: (**اللغة**)، فلا تجوز المقارنة بين عملين أدبيين كتبا بلغة واحدة مهما كان الاختلاف العرقي أو الجغرافي أو أي اختلاف آخر ،لأن هذه المدرسة تعتبر أنهما من قومية واحدة والمقارنة بينهما هي من قبيل الموازنة ومجالها هو : النقد الأدبي، وليس الأدب المقارن. وبناء على هذا فلا يجوز ـ حسب هذه المدرسة ـ أن نقارن بين عمل أدبي **لغوستاف فلوبير**، أو **غي دو موباسان** الفرنسيين، مع عمل أدبي كتب باللغة الفرنسية **لمحمد ديب**، أو **كاتب ياسين**، أو **مالك حداد**، أو **آسيا جبار** أو غيرهم من الكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية، لأنهم من القومية نفسها أي: (الفرنسية).

- **ثانيا : أن يتوفر الرابط التاريخي بين العملين الأدبيين**، بمعنى أن عملية المقارنة في إطار الأدب المقارن لا تكون إلا بين عملين أدبيين أو أكثر ثبت تاريخيا أن أحدهما قد تأثر بالآخر. فلا يجوز حسب هذا المفهوم مقارنة الأعمال الأدبية حتى وأن كانت تنتسب لقوميات مختلفة وكتبت بلغات مختلفة وكانت متشابهة، ما لم يتوفر الرابط التاريخي بينها، الذي يعد الأهم والجوهري ولا تتم الدراسة في إطار الأدب المقارن إلا بتوفره.
- **ثالثا : أن يكون المؤثر أدبا موجبا والمتأثر أدبا سالبا**، إن المدرسة الفرنسية التقليدية قسمت آداب وثقافات العالم إلى قسمين ؛ قسم موجب وقسم سالب، وربطت عملية التأثير والتأثر بحالة الاستعمار، وعلاقة الدول المستعمرة بالدول المستعمَرة، فترى أن أداب وثقافة الدول المستعمرة هي دائما الأقوى وهي دائما المؤثرة وعلى ذلك يكون أدبها موجبا، وأن أدب وثقافة الدول المستعمَرة هي الضعيفة، وبالتالي فهي المتأثرة دائما، وعليه فقد اعتبرت أن ثقافات وآداب أوروبا الغربية هي الموجبة وبالتالي هي المؤثرة دائما لأنها هي القوية وهي التي تمثل الحضارة ،أما باقي ثقافات وآداب العالم الآخرى،

وخصوصا العربية والإفريقية فهي تتأثر فقط باعتبارها ضعيفة ولا تمتلك ما تقدمه للآداب القومية الأخرى .[22]

إن من يمعن النظر في الأسس والشروط التي وضعتها المدرسة الفرنسية التقليدية للدراسة المقارنة يلمس بكل وضوح طغيان وتقدم البعد الإيديولوجي فيها عن البعد الأكاديمي العلمي، لأن تقسيم الآداب والثقافات العالمية إلى موجبة وسالبة، وربطها بعملية الاستعمار، أي :(ثقافة وأدب الدول المستعمرة موجبة، وثقافة وأدب الدول المستعمَرة سالبة)، وجعل الآداب والثقافات الأوروبية ـ وطبعا على رأسها الثقافة والأدب الفرنسيين ـ هي الموجبة باعتبارها المستعمرة المالكة للأدب الراقي والناقلة للحضارة. والثقافات والآداب العربية والإفريقية والأسيوية هي السالبة لأنها ثقافة وآداب الدول التي ترزح تحت الاستعمار ولا تملك ما تقدمه للآداب القومية الأخرى، وكذلك ما يتعلق بربط القومية بعنصر اللغة فقط وإهمال كل العناصر الأساسية والجوهرية الأخرى المشكلة للقومية والتي تعتبر أكثر أهمية من عنصر اللغة، ليس له مبرر ولم يبن على أي أساس علمي وإنما بني على أساس أيديولوجي بحت، الغرض الأساس منه هو ترسيخ الاستعمار الفكري الأوروبي عموما والفرنسي خصوصا، وكذلك خدمة النزعة "المركزية الأوروبية" (Eurozentrismus) وهي تلك النزعة الأيديولوجية التوسعيّة المتعالية، التي تخدم مساعي الهيمنة الثقافية الأوروبية والتي شكلت مكونا هاما من مكونات العقلية الاستعمارية الأوروبية في تلك الحقبة التي نشأت فيها المدرسة الفرنسية التقليدية.[23] هذا الأساس والطرح غير العلمي (الأيديولوجي) بالذات هو الذي عرض ـ في رأيي ـ هذه المدرسة للانتقادات الكثيرة من الفرنسيين أنفسهم قبل غيرهم والذين كان على رأسهم المقارني الفرنسي (**رينييه إيتامبل**) الذي رفض وانتقد بشدة هذه الأسس والمبادئ التي قامت عليها المدرسة الفرنسية التقليدية، وهو ذات السبب الذي جعل جيلا جديدا من المقارنيين الفرنسيين ينشقون عن تلك الأفكار التي تبنتها هذه المدرسة ويبتعدون عن تلك المبادئ والأسس (الأيديولوجية) التي قامت عليها أمثال : برونيل، P. Brunel، وبيشوا Gl. Pichois ، وروسو A.M. Rousseau. [24]

ثانيا : المدرسة الأمريكية واثر الصراع في تشكيل اتجاهاتها

لم تلتفت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأدب المقارن إلا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر[25]، ويمكن القول أن إرهاصات ظهور الاتجاه الأمريكي في الأدب المقارن، أو ما يسمى بالمدرسة الأمريكية يعود لسنة **1958**، حين ألقى الناقد الأمريكي (**رينيه ويلك**) محاضرته التاريخية بعنوان: (أزمة الأدب المقارن) في المؤتمر الثاني للرابطة الدولية للأدب المقارن الذي انعقد في " جامعة تشابل هيل" الأمريكية، والتي وجّه من خلالها نقدا لا مثيل له في حدته للمدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، محاولا من خلاله نسف كل أسسها ومرتكزاتها [26].

وفي الحقيقة فقد كان لمقال الناقد الأمريكي (**رينيه ويلك**) ــ الذي نشر لاحقا ـ وقع كبير في الساحة الأدبية، وأسال الكثير من الحبر في أوساط المقارنيين، وكان البداية في رسم التوجه الذي سارت عليه المدرسة الأمريكية بعد ذلك وسار عليه روادها وبالتحديد رائدها ؛ المقارني:(**هنري ريماك**)، الذي استطاع أن يؤسس المبادئ والمرتكزات التي قامت عليها المدرسة الأمريكية وذلك بإعطائه مفهوما جديدا للأدب المقارن يختلف اختلافا كبيرا عن المفهوم الفرنسي التقليدي لهذا العلم.

و يمكن القول إن أهم ما ميز اتجاه المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، هو رفضها لكل ما جاءت به المدرسة الفرنسية التقليدية، نظريا كان أو تطبيقيا، وجعلت للأدب المقارن مفهوما جديدا، ودعت إلى أسس جديدة تحكم الدراسة المقارنة تتمثل في :

1- ضرورة دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة للحواجز السياسة واللسانية حيث يتعلق الأمر بدراسة التاريخ والأعمال الأدبية من وجهة نظر دولية.
2- الدعوة إلى تطبيق منهج نقدي في الأدب المقارن، والتخلي عن المنهج القائم على حصر ما تنطوي عليه الأعمال الأدبية من مؤثرات أجنبية، وما مارسته على الأعمال الأدبية الأجنبية من تأثير.
3- الدعوة إلى جعل الدراسات المقارنة تدرس العلاقات القائمة بين الآداب من ناحية، وبين مجالات المعرفة الأخرى؛ كالفنون، والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية ...الخ.[27]

و يبدو لي أن هروب المقارنيين الأمريكيين من المفاهيم والمبادئ الفرنسية في الأدب المقارن، ورفضهم لمنهجيتها الصارمة في الدراسة المقارنة، وابتداعهم لمفهوم جديد لهذا العلم يخالف المفهوم الذي قامت عليه، هو هروب ورفض منطقي ؛ فالكثير من المبادئ والشروط التي وضعتها المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن لا تستند للعلمية وإنما بني أكثرها على منطلقات قومية أيديولوجية، ومن أهم الانتقادات التي وجهتها المدرسة الأمريكية للمدرسة الفرنسية التقليدية في هذا الشأن هي :

1- تقسيم المدرسة الفرنسية التقليدية لآداب وثقافات العالم إلى موجبة، وأخرى سالبة، واعتبار أن آداب العالم كلها، إما منبثقة عن أو منصبة في بحر الآداب الأوروبية.
2- افتقاد المدرسة الفرنسية التقليدية لتحديد موضوع الأدب المقارن، ومناهجه بدقة.
3- تغليب العناصر القومية على العمل الأدبي في الدراسة المقارنة .
4- المبالغة في إثبات عملية التأثير والتأثر .
5- النظر إلى الأدب كجزء من معركة الحصول على مزايا ثقافية، أو كسلعة من سلع التجارة الخارجية .[28]

و لكن، وبالرغم من منطقية هذا الرفض ووجاهة هذه الانتقادات التي وجهتها المدرسة الأمريكية لنظيرتها الفرنسية، وجعلتها حجة وسببا لرفض المفاهيم والمنهجية التي تبنتها هذه الأخيرة، إلا أنه في واقع الأمر ـ وحسب ما بدا لي ـ فهنالك أسباب أخرى خفية وجوهرية جدا تنطوي على صراع قومي أيديولوجي، لم تعلنها صراحة المدرسة الأمريكية، وهي المتمثلة ـ من وجهة نظري ـ في الآتي :

أولا : إن الدراسة التاريخية التي تتبناها المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن لا تتلاءم ـ مطلقا ـ مع طبيعة الولايات المتحدة الأمريكية، نظرا لحداثة تاريخ هذه الأخيرة، ولكونها لا تملك تاريخا أدبيا يضاهي التاريخ الأدبي الأوروبي عامة والفرنسي خاصة .

ثانيا : إن شرط اللغة الذي وضعته المدرسة الفرنسية، وجعلته إجباريا في أي دراسة مقارنة وربطته بالقومية، هو شرط لا يتماشى كذلك وطبيعة الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر دولة لا تملك لغة رسمية، من

جهة، ومجتمعها مشكل من العديد من القوميات والأعراق، من جهة ثانية وهو ما يعني أن كل الأعمال الأدبية التي ستنتج في أمريكا بأي لغة من لغات قومياتها ستنسب إلى أدب غير الأدب الأمريكي، بحيث أنه حتى وإن كتب بالإنجليزية، مثلا، وهي التي تعد اللغة الوطنية ـ واقعيا ـ فقد يدخل حسب شرط اللغة الفرنسي تحت الأدب الانجليزي، بحيث لا يمكن مقارنته بأي عمل أدبي انجليزي، وإن حدث ذلك فإن تلك الدراسة لا تعد دراسة مقارنة ولا تدخل تحت مجال الأدب المقارن، وإنما هي من قبيل الموازنات وتدخل في مجال النقد الأدبي، وهذا ما سينسحب على كل أدب مكتوب بأي لغة قومية من اللغات الموجودة في الولايات المتحدة الأمريكية كالإسبانية والصينية، والفرنسية ...الخ .

ثالثا: إن التقسيم الثنائي للأدب الذي فرضته المدرسة الفرنسية، وربطت من خلاله ايجابية وسلبية العمل الأدبي بعامل الاستعمار هو مبدأ لا يصب في مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية باعتبار أن الأدب الموجب والراقي هو أدب الدول المستعمرة، والأدب السالب هو أدب الدول المستعمرة، وأدب الولايات المتحدة الأمريكية بموجب هذا المبدأ لن يكون في الريادة .

و بناء على هذه الأسباب يبدو لي أن منظري الولايات المتحدة الأمريكية من نقاد ومقارنيين قد أدركوا أن الأسس التي وضعتها المدرسة الفرنسية التقليدية والمنهجية التي اعتمدتها في الدراسة المقارنة، تعتبر عامل إقصاء للولايات المتحدة الأمريكية في ميدان علم الأدب المقارن، فالتسليم بما جاءت به هذه المدرسة في هذا العلم سيجعل من الولايات المتحدة الأمريكية دولة تابعة لا متبوعة، ولذلك حاولوا أن ينسفوا كل المرتكزات والمبادئ التي قامت عليها المدرسة الفرنسية التقليدية، ومن أهمها المرتكز التاريخي والقومي واللساني.

ثالثا : المدرسة الروسية أو السلافية واثر الصراع في تشكيل اتجاهاتها

يعتبر الاتجاه الروسي أو السلافي أو ما يسمى بالمدرسة الروسية أو السلافية، والتي ظهرت في روسيا وبلدان أوروبا الشرقية الاشتراكية، إحدى المدارس المهمة في الأدب المقارن، وهي مدرسة لا يمثل الجانب الأيديولوجي نسبة معينة في تشكيل أسسها ومبادئها كما هو الشأن بالنسبة للاتجاهين الفرنسي والأمريكي ـ فحسب ـ، بل هي مبنية كلها على أساس إيديولوجي باعتبارها مدرسة ولدت من رحم الفلسفة الماركسية، وهي تلك الفلسفة المادية

الديالكتيكية التاريخية الأيديولوجية، التي ترفض بشدة الفلسفة الوضعية وتعتبرها فلسفة بورجوازية. وتملك نظرة شمولية للكون وللمجتمع وللثقافة والأدب وتؤمن " بأن هناك علاقة جدلية بين القاعدة المادية أو البناء التحتي للمجتمع، وبين البناء الفوقي الذي تشكّل الثقافة والأدب أهم مكوناته. وفي نظرتها إلى العلاقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي، أي بين المجتمع والثقافة، ترجّح النظرية الماركسية كفّة الطرف الأول، أي البناء التحتي والمجتمع، وترى فيه الطرف الرئيس في المعادلة الجدلية. فالوجود المادي يحدد الوعي الاجتماعي، والبناء التحتي يتحكم في البناء الفوقي، أي في الثقافة والأدب، ويوجه مسارهما"[29]

فالمدرسة الروسية أو السلافية في الأدب المقارن المبنية على هذه الفلسفة هي مدرسة لها نسق ثقافي يختلف عن مفاهيم المدرستين السابقتين ؛ الفرنسية والأمريكية، في مفهومهما للأدب المقارن، وكذلك في الميادين التي تدخل في مجاله. فبالرغم من أن هذه الأخيرة تلتقي مع المدرسة الفرنسية في النزوع إلى استخدام المنهج التاريخي في الدراسات المقارنة ، إلا أن أهداف ونتائج كل منهما ليست واحدة في ذلك، فالمدرسة الفرنسية تستعين بالمنهج التاريخي لإثبات عملية التأثير والتأثر بين الآداب بمعزل عن القوانين المتحكمة في تطوره، "بينما الماركسيون يستخدمون المنهج التاريخي لإثبات دور المجتمع والصراع الطبقي في تشكيل الأدب وظهور أجناسه فإذا تشابهت عندهم الظروف الاجتماعية في عدد من البلدان، سيؤدي ذلك التشابه الاجتماعي إلى ظهور أدب متشابه، ومن هنا أصبحت الدراسات الأدبية المقارنة موجهة كغيرها من المجالات المعرفية لإثبات مدى تحكم الظروف الاجتماعية، وتأثيرها "[30]

ويمكن القول بأن أهم ما نادت إليه هذه المدرسة، من خلال رصد أفكار ونظريات منظريها فيما يتعلق بالدراسات المقارنة يتجلى في الآتي :

1- ضرورة الاهتمام بالصراع الطبقي والصراع الإيديولوجي باعتباره المؤثر الأكبر في عملية استقبال أي مجتمع من المجتمعات للموضوعات الأجنبية.

2- الدعوة إلى دراسة التشابهات والاختلافات النمطية والابتعاد عن تقاليد المدرسة الفرنسية في مفهومها للتأثير والتأثر .

3- ربط الثقافي والتاريخي والجمالي بنظام روحي لكل شعب، وعدم إهمال الفروق القومية بين الثقافات والنظر إليها بكل موضوعية.

4- تجنب الأحكام المسبقة على أي ثقافة إلا بعد دراسة تطوراتها وعلاقاتها بغيرها من الثقافات في تطورها التاريخي.

5- ضرورة ربط المقارنة الأدبية بالمكون الاجتماعي للأدب.

من خلال استقصاء البذور التاريخية لهذه المدرسة، ورصد الملابسات التاريخية والسياسية والفكرية لظهورها، ابتداء من موقف الرفض التام لعلم الأدب المقارن من طرف أوروبا الشرقية عامة والروس خاصة ومنعه أصلا في روسيا طوال المرحلتين اللينينية والستالينية باعتباره ـ حسب الأيديولوجيا الروسية ـ آلية برجوازية من آليات الاستعمار الثقافي الرأسمالي[31]، إلى الانتقادات التي وجهها بعض الدارسون الروس للعديد من المؤتمرات والندوات العالمية للأدب المقارن، كالمؤتمر الخاص الذي انعقد في موسكو سنة 1960، الذي اتهمت بعض أعماله من طرفهم بأنها ذات نزعة عالمية جاهلة بالعناصر التاريخية والاجتماعية في الأدب ومعادية للآداب القومية، وخادمة للإمبريالية الأمريكية، وكذلك الانتقادات والاتهامات نفسها التي وجهت لندوة بودابيست بالمجر سنة 1962 .[32] بالإضافة إلى النداءات المتكررة من طرف بعض المقارنيين الأوربيين الشرقيين في مختلف المؤتمرات خلال فترة الستينيات لغرض تحديد مفهوم اشتراكي للأدب المقارن يتلاءم مع رؤيتهم الاجتماعية، وضرورة صياغة أسس مشتركة يقوم عليها الأدب المقارن الماركسي، [33] كل ذلك يمكننا من الوقوف على قناعة تامة بأنها نتاج أصيل للصراع الأيديولوجي الدولي .

الخاتمة:

إن ما ينبغي التأكيد عليه ـ من وجهة نظري ـ هو أن علم الأدب المقارن من العلوم البالغة الأهمية والخطورة في الآن نفسه ؛ وأهميته لا تكمن فقط كونه من العلوم الحديثة والفعالة التي أضافت الكثير للدراسات الأدبية واستفادت منها العديد من الفروع الأدبية كالتاريخ الأدبي، والنقد الأدبي، ونظرية الأدب، بل لكونه، كذلك علما متشعبا يتداخل ويتفاعل مع العديد

من الفروع المعرفية الأخرى خارج الأدب كالسياسة وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والفنون وغيرها .

ورغم ما نعلمه عن نشأة هذا العلم الذي نشأ في ظل ظروف زمكانية خاصة أثرت تأثيرا كبيرا في نشأته وتطوره وتشكيل اتجاهاته وتوجهاته، ورغم ما نعلم ـ أيضا ـ عن الأدوار الواضحة والجلية التي لعبتها الصراعات القومية والأيديولوجية بين مختلف دول العالم في تكوينه ولورة أسسه ومبادئه ومفاهيمه، كما وضحت من خلال هذه الدراسة، والتي لا ننكر أنها كانت ايجابية ـ أحيانا ـ كونها جعلت منه علما حركيا متفاعلا متطورا متجددا ـ دائماـ نتيجة التنافس ألتنظيري بين العديد من المنظرين من مختلف دول العالم في تحديد مفهوماته وميادينه، وسلبية في أحايين أخرى نتيجة لغلبة وطغيان الحسابات والمعايير القومية والأيديولوجية على المعايير الأكاديمية في تحديد مفاهيمه وبلورة أسسه واتجاهاته ، وهو الأمر الذي زج به في محطات كثيرة من مراحل تطوره التاريخية في أزمات مختلفة، عبر عنها العديد من النقاد والمقارنيين من دول مختلفة، ولعل من أهمهم الناقد الأمريكي **رينيه ويلك،** في مقاله المشهور :(أزمة الأدب المقارن) وكذلك الفرنسي **رينيه ايتامبل** في كتيبه الذي يحمل العنوان نفسه أي : (أزمة الأدب المقارن) بالإضافة إلي العديد من النقاد والمقارنيين الأوربيين الشرقيين والغربيين والعرب الذين عبروا عن تلك الأزمة التي وقع فيها ألأدب المقارن نتيجة لتداخل وتشابك القومي والأيديولوجي بالعلمي والأكاديمي في رسم ملامحه وتسطير توجهاته.

ولكن وبرغم تلك السلبيات التي اعترت هذا العلم في نشأته وتطوره، إلا أن ايجابيات علم الأدب المقارن قد لا يمكن حصرها إذا ما تم النأي به عن العصبية القومية والتوظيفات الأيديولوجية غير البريئة والأهداف الفئوية الضيقة، واستغل الاستغلال الأمثل كآلية مثالية للتقارب الثقافي والحوار الحضاري، فهو فضلا عن الخدمات الجليلة التي يقدمها للعديد من الفروع المعرفية المختلفة يمكنه أن يلعب دورا كبيرا جدا وأساسيا في أنسنة العالم وجعل شعوبه تتقارب نتيجة للدراسات التي تثبت يوما بعد يوم أن الأدب هو إرث إنساني لا تملك أية قومية من القوميات أو ثقافة من ثقافات العالم المختلفة ناصيته، فهو يسبح دوما في عملية تبادليه بين شعوب العالم من جيل إلى جيل ومن حضارة إلى أخرى، كما أن من شأنه أن يؤمن فهم الآخر المختلف وقبوله والاعتراف بوجوده ودور ثقافته في تطور الثقافة العالمية،

ويساهم مساهمة فعالة في تصحيح بعض الصور النمطية السلبية التي رُسمت لقوميات عند قوميات أخرى، فكانت سببا للعديد من الصراعات والنزاعات الفكرية والثقافية وحتى المسلحة، وفرخت العديد من الأفكار والتوجهات الإستئصالية التي يعاني منها العالم اليوم.

هوامش المقال

1 - سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المملكة المغربية، 1987، ص 70

2 - انظر، دانييل هنري باجو ،الأدب العام والمقارن، ترجمة : د .غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا 1997، ص 13

3 - انظر طه ندا، الأدب المقارن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1991، ص27

4 - احمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الأول ،ط1، مادة :ص / ر/ع، دار عالم الكتب القاهرة، جمهورية مصر العربية ،2008، ص 1289 .

5 - راجع، منير محمود بدوى، مفهوم الصراع : دراسة فى الأصول النظرية للأسباب والأنواع، مجلة "دراسات مستقبلية"، العدد الثالث، مركز دراسات المستقبل ـ جامعة أسيوط يوليو 1997، ص36

6 - المرجع نفسه، ص36

7 - هنري أيْكن، عصر الأيديولوجية، ترجمة :محي الدين صبحي، دار الطليعة، بيروت لبنان ،1971، ص 63

8 - عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، ط 5، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان 1993، ص 11

9 - المرجع نفسه، ص 5

10 - محمد تقي مصباح اليزدي، الأيديولوجيا المقارنة، ترجمة : عبد المنعم الخاقاني، ط 1، دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992، ص 10

11 - ويكيبيديا الحرة، موقع :wikipedia.org/wiki.

12 - علي عودة العقابي ، العلاقات الدولية دراسة تحليلية في الأصول والنشأة والتاريخ والنظريات، دار الرواد للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، بغداد العراق، 2010 ، ص 28

13 - محمد غنيمي هلال ،الأدب المقارن، ط 5، دار العودة ودار الثقافة، بيروت ،لبنان ،1981، ص06

14 - أنظر، كلود بيشوا، أندريه .م روسو، الأدب المقارن، ترجمة : د. أحمد عبد العزيز، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2001، ص 35

15 - المرجع نفسه، ص 94

16 - المرجع نفسه، ص 91 - 92
17 - المرجع نفسه، ص 93
18 - انظر ؛ مسعود ظاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية ؛ تشابه في المقدمات واختلافات في النتائج، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1990، ص 10
19 - أنظر، أحمد درويش، نظرية الأدب المقارن، وتجلياتها في الوطن العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002، ص27
20 - ماريوس فرانسوا غويار، الأدب المقارن، ترجمة : هنري زغيب ،ط2، منشورات عويدات، بيروت، لبنان 1988، ص 15
21 - محمد غنيمي هلال،الأدب المقارن، ط13، دار العودة، ،بيروت، لبنان، 1987، ص 25
22 - راجع، عبده عبود ، الأدب المقارن مشكلات وآفاق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 1999، ص 31-32
23 - راجع، المرجع نفسه، ص 33
24 - راجع، المرجع نفسه، ص 50
25 - راجع، حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا ،ط2، دار الفكر، دمشق، سورية 1999 ص108
26 ـ أنظر ،عبده عبود، مرجع سابق، ص 47
27 - أنظر، حيدر محمود غيلان ،الأدب المقارن ودور الأنساق الثقافية، مجلة دراسات يمنية العدد 80، مركز الدراسات والبحوث اليمني، العدد 80، يناير - مارس، 2006، صنعاء، الجمهورية اليمنية، ص 23- 28
28 - راجع، رينيه ويلك، مفاهيم نقدية، تر : د. محمد عصفور، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1989، ص 297- 308
29 - عبده عبود، مرجع سابق، ص 40
30 - حيدر محمد غيلان، مرجع سابق، ص 93
31 - انظر، حيدر خضري، التجربة السلافية والدرس المقارن للأدب، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد 10، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، 2008، ص 22
32 - انظر المرجع نفسه، ص ن
33 - أنظر، حيدر محمد غيلان، مرجع سابق، ص 94